إيجاد القلب العميق خلال الصوم الكبير

الأرشمندريت زخريا زاخارو
نقلته إلى العربيّة الخوريّة جولي عطية عيسى

يحذّرنا الكتاب المقدَّس قائلاً: "يستحيل على الإنسان الذي لا قلبَ له أن يطلب الحكمة" (راجع أمثال ١٧: ١٦). ما هو القلب بالنسبة لنا نحن المسيحيّين، ومَن هو الرجل الذي "لا قلب له"؟

إنّ الله يصنع قلبَ كلّ إنسانٍ على نحوٍ مميّزٍ وفريد (مز ٣٣: ١٥). فلا يوجد قلبٌ آخر مثله، وهو يشكّل لبّ الأقنوم البشريّ [١]. يصبح الإنسان عظيمًا عندما يقترب من الله بـ"قلبه العميق" (مز ٦٤: ٦)، لأنّ هناك، مع الله، هو "مكان الصلاة الروحيّة"[٢] و"ساحة المعركة الروحيّة" [٣]. فاللاهوت الحقيقيّ ومعرفة الله الحقيقيّة لا ينفصلان عن إحساس القلب العميق. ولهذا السبب، يؤكّد لنا كلام الله أنّ "إنسان القلب المستتر" هو "كثير الثمن أمام الله" (١ بط ٣: ٤).

يوجّه الربّ دعوته إلى قلب الإنسان، أي "المركز الروحيّ للإنسان" [٤] الذي يملك القدرة على إمساك الأبديّة، لكي "يعرف مثاله الأوّل – الله الحيّ" [٥].

إنّ قلب الإنسان العاجز عن الشعور، بدلاً من أن يكون المكانَ المنير الذي يسكن فيه الله، يكون مجرّد مضخّةٍ تُرسل الدم إلى الجسد. يكون هذا الإنسان بلا قلب، ويعجز عن اقتناء الحكمة. فقط حين يقتني الإنسان إحساسًا إلهيًّا ونوسيًّا في قلبه، يكون حيًّا بالفعل أمام الله. وإلاّ فطبيعته تكون منقسمة: يطلب قلبه أمرًا معيّنًا، ويطلب ذهنه المشتَّت أمرًا آخر، ويطلب جسده الجامح إشباعَ حاجاته وأهوائه معاندًا. عندما ينفصل الذهن عن القلب، تُشتّته حواسّه في العالم المخلوق. نكون "مضطربين ومحمولين بكلّ ريحٍ" (أف ٤: ١٤) من الخيال، وتأسرنا بسهولةٍ القوّة الشيطانيّة والضلال. إذا لم يقف الذهن حارسًا على عتبة القلب، يبقى القلب قاسيًا، ولا تُنتج أرضيّته سوى الأفكار الشرّيرة، التي تُغرق البذرة غير الفاسدة التي لكلمة الله (راجع عب ٦: ٨ و١بط ١: ٢٣). فيصبح حينئذٍ وكرًا لكلّ رذيلة. إنّ الخطيئة، كحدثٍ روحيّ، تُرتكَب في السرّ في عمق قلب الإنسان.

إذا أردنا أن يصير جسدنا وروحنا مكانَ استعلانٍ لمجد الله، لكي نحتفل حقًّا بفصحنا الشخصيّ، علينا أن نجد قلبنا العميق. على الذهن المشتَّت بالاهتمامات الباطلة أن يعود ويتّحد بـ"الجسد الأكثر عمقًا في جسدنا"، [٦] الذي هو قلبنا.

إنّ الكنيسة المقدّسة والنقيّة، خزانة عطايا الروح القدس، تقدّم لنا فترة الصوم المقدّس كنورٍ يُشرق على الزمن المتبقّي من حياتنا ويُجدّده. فالصوم الكبير هو فرصةٌ عظيمةٌ بالنسبة لنا، وامتيازٌ منحنا إيّاه الله لكي نتعاون معه من أجل إعادة إضرام النعمة التي اقتبلناها في المعموديّة المقدّسة، ومن أجل إنعاش قلبنا.

تساعدنا هذه الفترة على تقديم جزئنا الخاصّ الصغير لله، مثلاً تطبيق وصايا الصوم. إنّ الصوم يجعل جسدنا وروحنا متواضعَين، ليُفسح مكانًا في القلب لزيارة النعمة. وهذه النعمة تجعلنا متّحدين بأعضاء الكنيسة الآخرين، لكي نتمكّن من الاشتراك أيضًا بعطايا أعضائها الأقوى أي القدّيسين.

استنادًا إلى الأب صفروني، ينقّي الصوم القلبَ ويجعله "رائيًا" [٧] بواسطة النعمة، وقادرًا على اقتبال الحكمة الروحيّة. ويعلّم القدّيس سلوان بالروح ذاتها أنّ الصوم مفيد [٨] عندما يكون مقرونًا بالتعفُّف واليقظة والهدوء والفضائل الأخرى. إلاّ أنّ قوّته الأساسيّة تُستقى من التواضع.

في بداية عمليّة الشفاء التي تقدّمها لنا الكنيسة خلال فترة الصوم، يُستجمع الذهن الذي كان مشتّتًا في العالم بواسطة الحواسّ، ويدخل إلى القلب. ويتّحد الذهن بالقلب في رؤيةٍ جديدة: يصير الله مركز الأشياء كلّها، ويتحوّل الإنسان نحوه بتواضع.

إنّ روح التوبة تجرف أعماقنا، وتُعلن ما هو مختبئٌ في قلبنا، فنرى حالتنا الفعليّة كما لو بعيون الله. وكما أنّ الخطيئة تُرتكب في عمق القلب، كذلك تجري التوبة أيضًا في القلب، أعمق مكانٍ في روحنا. إنّ التوبة تشفي طبيعتنا وتشدّدها من خلال نعمة الله، وتلد فينا تدفّقَ صبوٍّ إلى الله لا يُحتوى.

خلال الصوم الكبير، تسعى الكنيسة إلى أن تغرس وتؤجّج فينا اندفاعًا شديدًا نحو التوبة، وذلك من خلال الصوم، والخِدَم الغنيّة التي توحي بالانسحاق، والسجدات، والركوع، والمناقب الأخرى. تهدف الكنيسة إلى أن تُلهم الصلاة المشتعلة التي تطهّرنا من الأهواء وتزرع فينا الألم المقدّس، ألم الحبّ الإلهيّ، لكي لا يبقى في ذهننا أو قلبنا أيُّ فكرٍ غير كره الخطيئة المحيقة بنا، ورغبةٍ ملتهبةٍ بالله المخلّص. والنقطة الأساسيّة في توبةٍ كهذه هي أن نحفظ العهد الذي قطعناه في معموديّتنا، وهو أنّنا من الآن فصاعدًا، سوف نموت عن الخطيئة ونحيا لكلام الله ووصاياه.

خلال الصوم الكبير والمقدّس، ترغب الكنيسة في أن تجعلنا مشتركين في كلام الربّ "كنتُ ميتًا وانظروا أنا حيٌّ إلى الأبد"، مانحةً ايّانا الفرصة لكي نتذوّق القليلَ من الموت من خلال الصوم والاعتراف وعمل الإحسان، وبعامّة، من خلال النسك. بواسطة الألم في الصوم، نصبح مثل المسيح الذي يتألّم (راجع أعمال ٢٦: ٢٣) في هذا العالم. وتُمنح قوّة قيامته لنا، لكي نستطيع كأولادٍ للكنيسة حاملين للنور، أن نرتّل في يوم الفصح المقدّس: "أيّها المسيح، أمس قد دفنتُ معك، واليوم أقومُ معك". بقدر اشتراكنا في آلام المسيح وإفراغه ذاته، ننال غنى عطاياه ونعمة قيامته.

وثمّة طريقةٌ إضافيّةٌ تمكّننا من إيجاد قلبنا العميق خلال الصوم الكبير، وهي المواظبة على قراءة الكتاب المقدّس. إنّ كلمة المسيح هي نورٌ إلهيٌّ غير مخلوق، تتّجه نحو قلب الإنسان العميق، أي نحو لبّ مبدئه الأقنوميّ. وقبل كلّ شيء، لكي ينفتح قلبنا على كلمة المسيح ونقتبل نعمة التوبة، علينا أن نملك إيمانًا كاملاً بألوهيّة المسيح. ثمّ ستقع كلمة المسيح الحيّة في العمق المستتر لقلبنا، كبذرةِ محبّةٍ تَلِدُ في نفسنا التوبة التي تتخطّى معيار الوعي الدينيّ العاديّ [٩]. وهذه الخبرة تقنعنا بشدّةٍ بأنّ تعليم المسيح يتجاوز مستوى الأخلاقيّ، وبأنّه مؤلّه. إنّ التعليم الإنجيليّ ينير رؤيتنا الداخليّة ببهاء كلمة الله، وينمّي حسًّا روحيًّا في داخل قلبنا، لكي لا تفوتنا أيّة حركةٍ أو أيّ فكرٍ من الآن فصاعدًا. وترشدنا طاعة كلمة الربّ إلى أن نحفظ وصاياه الإلهيّة، ومن ثمّ إلى أن نضع أنفسنا على طريق الربّ، لكي يصبح رفيقَ دربنا مَن هو الطريق أيضًا. إذا أطعْنا الكلمة الإنجيليّة بعطشٍ وثبات، سنقتني مِثل لوقا وكليوبا "قلبًا ملتهبًا في داخلنا"، جاهزًا لتلقّي الربّ القائم ومعرفته عبر نار محبّته وحلاوتها.

ينزل الذهن إلى القلب عندما يُصلَب بواسطة الوصايا الإنجيليّة. ويشفى ويتّحد بالقلب. عندما تغلّفنا النعمة، نستطيع أن نرفض كلّ ما هو مرئيّ في العالم، وأن نصير تلاميذ لروح محبّة المسيح غير الفاسدة.

يصبح اتّحاد الذهن بالقلب ممكنًا من خلال صَلْبٍ يحصل على مرحلتَين. بحسب بولس الرسول، يلتزم المرء في المرحلة الأولى بجهادٍ كبير، من أجل أن يبتعد عن بطلان العالم، وعن العبوديّة لمثُله المتغطرسة الممقوتة لدى الله: "صُلبَ العالم لي". وفي المرحلة الثانية، يتركّز جهدنا كلّه على إخضاع ذواتنا كلّيًّا لمشيئة الله، واستئصال شريعة الخطيئة من قلبنا، وتحرير ذواتنا من عبوديّتنا الداخليّة: "وأنا صُلبتُ للعالم" (غلا ٦: ١٤). وتستمرّ المعركة الروحيّة إلى أن تُدشَّنَ كلمة الإنجيل في داخلنا، شريعةً وحيدةً وأبديَّةً لوجودنا. حينئذٍ نصبح هيكل الله، ونحمل في داخلنا روح النعمة كضيف، أيًّا كانت الظروف الخارجيّة التي قد نعيش فيها. تصبح الخليقة كلّها كنيسةً بالنسبة لنا، ومكانَ تقدمةٍ أمام الله الحيّ [١٠].

لقد ميّز الأب صفروني درجتَين من الحريّة الروحيّة في هاتين المرحلتَين. الدرجة الأولى هي إنكارنا العالم، والإقلاع عن السلطة على الآخرين. والدرجة الثانية هي حريّة القلب الكاملة، والتي هي ضروريّةٌ إذا أردنا أن نقفَ ثابتين في حضرة الله. هذه الحريّة هي "أن نتحرّر من سلطة الآخرين" [١١]. إنّ كمال حريّة الإنسان هو كماله كشخص. هذا هو إنجازنا الكامل وهدفنا الأخير.

لقد فسّر القدّيسان دوروثيوس غزّة وغريغوريوس بالاماس هذا المقطع من بولس الرسول: "صُلبَ العالم لي وأنا صُلبتُ للعالم"، مطبّقين إيّاه على مرحلتَي الصلْب في حياة الراهب. وربط الأبوان كلاهما

المرحلة الأولى برفض الخطيئة التي تحيق بنا في هذا العالم؛ والمرحلة الثانية بالموت الداخليّ للإنسان عن أهواء الخطايا، أي باللاهوى.

كيف نتجنّب الخطيئة ونحن عائشون في هذا العالم الذي "تحت حكم الشرّير" (١ يو ٥: ١٩). هذا ممكنٌ فقط إذا تعلّمنا العيش بقلبنا، مبكّتين ذواتنا بصلاة التوبة، ومحافظين على اليقظة عبر ذكر اسم الربّ. من خلال اليقظة، سوف نَجِدُ "ينبوع ماء" (يو ٤: ١٤) ونورًا في القلب يجذب الذهن. لن تنطبع الاقتراحات والصور الشرّيرة في الذهن أو القلب، بل سوف يُزدَرى بها بسهولة، لأنّ انجذاب الإنسان الداخليّ نحو القلب سيكون أقوى من أيّة انطباعاتٍ خارجيّة: "الذي فيكم أعظم من الذي في العالم" (١ يو ٤: ٤). من دون اليقظة، لا يمكن إبقاء النعمة في القلب. يجعلنا الحزن الروحيّ في اتّصالٍ مستمرّ مع روح الحياة، إلى أن تبلغ نعمة الله المتراكمة في القلب ملئَها. وأخيرًا، تجري إعادة ولادتنا في الروح القدس.

لقد أتمّ المسيح، بواسطة صليبه، الوصيّة العظمى التي استلمها من "أبيه" (راجع يو ١٠: ١٨)، ومنح المؤمنين "نعمةً فوق نعمة" (يو ١: ١٦). والإنسان الذي يذكر اسم الربّ يسوع يدخل في سرّ صليب المسيح وقيامته، ويُجلَب قلبه إلى الحياة، ويصير هيكلاً للألوهيّة. إنّ الذكر الإلهيّ لاسم المسيح يُنعش حضور الإله الأزليّ في قلبنا، ويمنحنا قوّةً مميّزة، تكون مثل حياةٍ جديدةٍ تخترق وجودنا كلّه. ولا يكفّ تكرار اسم المسيح عن أن يكون عبئًا فحسب، بل يقودنا أيضًا إلى وفرةٍ متزايدةٍ من المحبّة والحكمة. تنفتح أعيُنُنا لكي نكتشف باستمرار أسرارًا جديدةً عن طريقة المسيح، وعن عنايته المتعذّر فهمها في حياتنا اليوميّة. ونغتني بخبرة الأبديّة.

إنّ زمن الصوم هو وقتٌ نعمل فيه على قلبنا، ومدرسةٌ في الموت الطوعيّ. يمرّ طريق الربّ بالموت على الصليب، والنزول إلى الجحيم السفليّة، ومنها إلى القيامة الحاملة الحياة. وعندما نقبل بالألم الطوعيّ، عبر قبولنا بشكرٍ ومن دون تذمّر، بالتجارب التي تسمح بها عناية الله في حياتنا، نكتشف من خلال الإيمان سرّ الحبّ الإلهيّ المتعذّر وصفه، الذي يبلغ من أجلنا أعماق الجحيم. لن تكتمل معرفتنا بسرّ المسيح أبدًا إذا لم تحتوِ خبرتنا أيضًا على النزول إلى الجحيم.

إنّ الإيمان بقيامة المسيح، والرجاء بقيامتنا الخاصّة، يلهماننا على العيش بحسب وصايا الله، مائتين عن مشيئة جسدنا. وبذلك، سيتجلّى قلبنا العميق، وسنعرف بالخبرة أنّنا قد نُقلنا "من الموت إلى الحياة".

وحده العمل الذي عملناه في داخل قلبنا سيرافقنا إلى الأبديّة. إذا طهّرنا قلبنا في هذه الحياة، سنعاين وجه الله بحسب وعده: "طوبى لأنقياء القلوب فإنّهم سيعاينون الله" (مت ٥: ٨).

إنّ مأساة الإنسان المعاصر هي أنّه يحيا خارج قلبه. فهو يفكّر ويعمل ويتكلّم، وحتّى إنّه يحبّ ويصلّي خارج قلبه. تمنحنا فترة الصوم، نحن المسيحيّين، فرصةً عظيمةً للدخول إلى قلبنا، والعودة إليه مثل عودة الابن الشاطر إلى بيت أبيه. ورؤية جحيمنا الداخليّ في نور قداسة الله وتوهُّج محبّته النقيّة، تثير في نفسنا رغبةً لا تُكبَح في "كسر سلاسل سقوطنا" [١٢] والاستسلام كلّيًّا لإله النور والمحبّة، الذي جاء ليهَب حياةً لا موتًا. ثمّ سيتردّد صوتُ الربّ في قلبنا: "يا بنيّ، أعطني قلبك" (أمثال ٢٣: ٢٦)، وسوف يعلن هو نفسه: "أنتَ ابني، وأنا اليوم ولدتُكَ" (مز ٢: ٧، عب ١: ٥ و ٥: ٥).

من خلال كلمته الحيّة، زرع الربّ يسوع "بذرةً عادمة الفساد". وبنعمة روحه، وَهبنا عطيّة التبنّي، والدًا الكنيسة وجاعلاً ايّانا أولادَ قيامته. إنّ غلبة المسيح على العدوّ الأخير، أي الموت (١ كور ١٥: ٢٦)، تتمّ في قلبنا العميق، وهناك أيضًا يجري انتصار الإيمان الأرثوذكسيّ. بكلامٍ آخر، سوف تطبع النعمة في قلبنا صورة الربّ يسوع، وسوف تجعلنا وارثين لغلبته على الموت.

دعونا نقدّم الشكر لله، أيّها الآباء والإخوة الأحبّاء، هو الذي أعطانا فترة الصوم الكبير هذه محرَّكةً بنعمته، من أجل مساعدتنا على إيجاد قلبنا العميق، والدخول إلى الحضور الحيّ للمسيح القائم من بين الأموات. إنّ المسيح، ختن الكنيسة، يطرق على باب قلبنا باحثًا عن اتّحادٍ كاملٍ بنفسنا بواسطة روحه القدّوس. في كلّ مرّةٍ نقترب وندخل في حضور الربّ يسوع الباهر، يكون ذلك فصحنا الشخصيّ. لا يبقينَّ

مؤمنٌ خارج خدر المسيح، بل وبعد أن نكون قد اختبرنا قانونيًّا فترة الصوم المفيدة روحيًّا، كزمن تجديدٍ وكعلامة بارزةٍ للنعمة، لنحتفلنَّ كلّنا بفصحٍ أبديّ.

[١] راجع كتاب "معاينة الله كما هو" للأرشمندريت صفروني سخاروف.
[٢] راجع كتاب "في الصلاة" للأرشمندريت صفروني سخاروف.
[٣] راجع كتاب "القدّيس سلوان الآثوسي للأرشمندريت صفروني سخاروف.
[٤] معاينة الله كما هو.
[٥] معاينة الله كما هو.
[٦] راجع كتاب "الدفاع عن القدّيسين الهدوئيّين" للقدّيس غريغوريوس بالاماس.
[٧] معاينة الله كما هو.
[٨] القدّيس سلوان الآثوسي.
[٩] القدّيس سلوان الآثوسي.
[١٠] القدّيس سلوان الآثوسي.
[١١] معاينة الله كما هو.
[١٢] معاينة الله كما هو.